تمهيـــد

كنت أفضّل ألا يكتب أحد كتاباً عني

أرنون ميلتشان

في مساء ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨، كان من السهل أن يعتقد المرء خطأ أن هناك افتتاحاً لفيلم ضخم في استوديو بارامـاونت، إذ وصلت الأضواء الاستكشافية الساطعة لعنان السماء بينما كان النجوم المشاهير يسيرون على البساط الأحمر ويصحبهم وميض الكاميرات الذي يعمي الأبصار. لكن هذا الحدث كان مختلفاً، إذ كان السبعمائة وكذا من الحضور كلهم من المديرين التنفيذيين للاستوديوهات ومن قادة المجتمع، والذين لم يأتوا لتكريم فيلم بل... رجل.

obeikandl.com

وصل أرنون ميلتشان مع زوجته أماندا، وبدا غير مرتاح فى بذلته الرسمية، أو وسط كل هذا الاهتمام الفائق به. سرعان ما سعى للاختفاء بين حشود الحضور. لكن لم يكن هناك سبيل للهروب من كل الخطابات التى تمتدحه، ومن الفيلم المفصل الذى يوثق إنجازاته السينمائية.

وبالرغم من أن اسمه مرتبط بأفلام ضخمة فى هوليوود مثل امرأة جميلة وحرب عائلة روز وسِرِّى فى لوس أنجلوس ونادى القتال والسيد والسيدة سميث، وملحمة المؤامرة التى أخرجها أوليفر ستون أو فيلم جيه إف كيه، فلم يكن سوى القليلين من الجمهور على دراية بالحياة الخاصة للرجل الذى كانوا على وشك تكريمه بمنحه جائزة أفضل إنجازات العمر. وكإعادة صياغة لما قاله ونستون تشرشل فميلتشان عبارة عن لغز ملفوف فى سر غامض بداخل أحجية، وهذا الكتاب يكشف عنه هذا الغطاء الغامض.

obeikandl.com

هذه هى القصة المثيرة للجدل عن عميل سرى، عن الانشطار النووى، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية، عن التوجه الفكرى، عن الوطنية، وعن المسيرة العملية المريبة لواحد غامض من أباطرة هوليوود.

أرنون ميلتشان الذى ولد فى إسرائيل عام ١٩٤٤، عاش الحياة التى أحب كل من إيان فليمينغ وجون لو كاريه أن يكتبا عنها، والتى يروق لستيفن سبيلبرغ أو ربما حتى أوليفر ستون أن يصنعوا فيلماً عنها. ميلتشان يحب المخاطرة، ساحر لكنه قوى الشكيمة، كتوم لكنه مشهور... فقط فى أوساط المشاهير. كان عميلاً سوبر بكل معنى الكلمة، وأقرب ما يكون لشخصية حقيقية لجيمس بوند. وهو خبير فى أنواع النبيذ الفاخرة والمقامرة بمبالغ طائلة، والخداع، والسيارات الغريبة، والأسلحة العجيبة، ويملك مجموعة فنية خاصة تقدر بـ ٦٠٠ مليون دولار متناثرة فى منازله بكافة أنحاء العالم، من موناكو إلى جنوب إفريقيا، ومن باريس إلى مالييو إلى إسرائيل.

obeikandl.com

لقد بدأنا هذه المحاولة الكتابية ككاتبين لسيرته دونما ترخيص منه وسرعان ما وجدنا أنفسنا نضطلع بمهمة المخبرين السريين وأصبحنا كمحققين نرفع طبقات متتالية من الأغطية الخفية، ونكشف عن قصة رجل فريد وعن تورطه العميق فى صراعات إسرائيل السرية للبقاء.

لعدة أشهر وبدون علم ميلتشان أو موافقته، انغمسنا فى سجلات المحاكم والمقالات غير المعروفة فى كل من الصحافة العبرية والإنجليزية، بالإضافة إلى الروايات والمذكرات الخاصة. واعتمدنا بشكل كبير على معرفتنا المباشرة بالثقافة واللغة التى انبثق منها موضوعنا، وتحدثنا مباشرة مع الشخصيات الأساسية المذكورة فى الكتاب، وزرنا معظم المواقع المذكورة به.

بذلنا كل الجهد لتوثيق الوقائع بأكبر قدر ممكن من الصدق والتكاملية والحيادية والصحة، وبوضع الأمور فى سياقها التاريخى الكامل. قمنا باجتزاء العديد من المقولات المأخوذة عن ميلتشان أو آخرين المستخلصة أو المترجمة من مقابلات نادرة أجريت على مدار عقود فى الصحافة العالمية. تتضمن المصادر الأخرى السيرة الذاتية لجد ميلتشان والتى نشرها بنفسه، بالإضافة إلى سلسلة من المخطوطات غير المعروفة الواقعية والمختلقة، والمكتوبة تحت اسم مفترض لشخص ذى علاقة مباشرة بحياة ميلتشان السرية. ولقد اكتشفنا هذا الكاتب بواسطة عملية بحثية، وواجهناه شخصياً، وتأكدنا من صحة هويته.

وما أن انتهينا من إعداد المخطوطة، فاجأنا بها ميلتشان ومنحناه الفرصة للرد. فى البداية كان متردداً وربما حتى متخوفاً، وفى النهاية وافق على مقابلتنا بعدما قدمنا له كل التطمينات بنوايانا الحسنة الشريفة. وخلال القليل من الاجتماعات الودودة، تمكنا من التحقق من صحة معظم التصريحات الواردة بهذا الكتاب، وصححنا العديد من أخطاء الوقائع. ومن جانبه، فقد رفض ميلتشان تأكيد أى من التصريحات العديدة الحساسة الخاصة بالأمن أو إنكارها. ومع ذلك وعبر أرفع مستويات السلطة فى إسرائيل تحققنا

جيداً من مجمل الحقائق الحساسة محل الخلاف والمتعلقة بالأمن الإسرائيلي، والتي يعج بها هذا الكتاب. كان هناك العديد من المصادر، لكن أهم التأكيدات جاءت على لسان الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز نفسه، في مقابلة خاصة أجريناها معه في مقر الرئاسة بالقدس في ٨ فبراير ٢٠١٠ وقال:

أرنون رجل متميز وأنا من جندته، للعمل السري خارج النظام الرسمي، وأسهم بأفكار مذهلة ومستوى من الإبداع ساهم بشكل رائع في خدمة بلدنا. عندما كنت وزير الدفاع، كان أرنون معنياً بالعديد من الأنشطة الشرائية الخاصة بالدفاع العسكري والعمليات الاستخباراتية. وكان مناط قوته صنع علاقات على أعلى المستويات في عدة دول حول العالم، ومنها دول هامة لا تربطها بإسرائيل علاقات رسمية. ولقد قدمت نشاطاته فوائد هائلة لنا استراتيجياً، ودبلوماسياً، وتكنولوجياً ولا يزال أرنون يقوم بذلك حتى يومنا هذا، لكن على الصعيد الاستراتيجي فحسب.

أناس قليلون في هوليوود أو في أي مكان على دراية بإنجازات ميلتشان «البطولية»، والعديد من أصدقائه المقربين سيفاجئون عندما يقرءون ما يلي. أخبرنا سامر ريدستون مالك شركة الإعلام الضخمة (فياكوم) إنه "خارج نطاق الهمسات والأفلام، لا يعرف سوى القليلين دور أرنون في إمداد إسرائيل بحاجاتها للدفاع العسكري، وتكوين قدراتها الرادعة المتقدمة. أنا ومعظم الناس لا نعرف تفاصيل ذلك، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأنه رجل عظيم. بالنسبة لي هو السيد إسرائيل، إذ عرفني على جميع رؤساء وزراء إسرائيل منذ الثمانينيات".

قال عنه رويرت مردوخ أهم أباطرة الإعلام العالمي ومدير نيوز كوربوريشن: أرنون ميلتشان رجل متعدد المواهب شغوف بكل ما يقوم به، فهو رجل أعمال إسرائيلي، وسياسي إسرائيلي متحمس، ومنتج هوليوودي وجامع رائع للأعمال الفنية. إنه صديق وفي وكريم يتصادف أنه أيضاً شريك قديم عظيم وأهل للثقة.

أيضاً قال عنه بيتر شيرنين مدير ورئيس مجلس إدارة فوكس إنترتنمينت ذات مرة مازحاً "إياك أن تقول نكاتاً عن رجل يستطيع بسهولة جلب أسلحة دمار شامل".

فى الواقع ربما لا يكون الكثيرون على دراية بتفاصيل حياته السرية، لكن يكاد كل شخص يعيش على هذا الكوكب أن يعرف العديد من إسهاماته فى ثقافتنا الشعبية السينمائية. ولذا أسمينا كل فصول هذا الكتاب بأسماء أفلامه.

وكأى شخص يعمل فى هذا المجال فقد ارتكب بعض الأخطاء الفادحة، وتورط فى العديد من المساعى المثيرة للجدل، واحتك بالبعض بطريقة خاطئة ويبدو أنه يثير الكثير من النقد اللاذع أو حتى الغيرة من بعض ضحاياه، بالرغم من ذلك فإن كثيراً منهم مستعدون للعمل معه مجدداً.

يسعى هذا الرجل ذو الشخصية المركبة والذى عاش لفترة طويلة بأوجه متعددة عن طريق تقسيم حياته أجزاء مستقلة عن بعضها لإيجاد بدائل وسبل عامة لترك أثره على هذا العالم، بتخطى جمع الاستخبارات، وشراء معدات الدفاع العسكرى عالية التقنية، والأفلام الضخمة فى هوليود. ميلتشان ضالع بشدة فى السياسة، أو على حد قوله ناشط سياسى قوى وراء الكواليس. ومنذ أعوام كان ينزعج بشدة لمجرد ذكر كلمة السياسة، كما كان ينزعج من لفظ ثرى خاصة عندما يشير إليه، لكن الوقت والخبرة عملا على شفائه من هذا الانزعاج.

لم يكتب أرنون بعد فصله الأخير وقد بلغ الخامسة والستين من عمره. ولا يزال يرى فرصته التالية، وحلمه التالى، وفيلمه المقبل، كفرصة لإحلال السلام فى الشرق الأوسط!!

وكما فى أى فيلم ضخم فى هوليوود، ففيلم الإثارة المتمثل فى حياته حتى الآن، سيكون له جزء ثان بأسلوب أو آخر.